الفصل الخامس:
غزوة مؤتــة

وبعد عودة المسلمين من مكة اضطرتهم الظروف لمقاتلة الروم في معركة مؤتة رداً لأطماعهم في الجزيرة العربية.. والاستيلاء عليها ومنع انتشار دين الله فيها.. فلقد كان الروم بإمبراطوريتهم العتيدة، قد بدؤوا يوجسون من الإسلام خيفة.. بل صاروا يرون فيه خطراً يهدد وجودهم، ولاسيما في بلاد الشام التي يستعمرونها، والتي تتاخم بلاد هذا الدين الجديد المنطلق في عنفوان واكتساح.. وهكذا راحوا يتخذون من الشام نقطة وثوب على الجزيرة العربية وبلاد الإسلام..

ولقد أدرك رسول الله صلى الله عليه وسلم هدف هذه المناوشات التي بدأها الروم ليعجموا بها عود الإسلام فقرر أن يبادرهم، ويقنعهم بتصميم الإسلام والمسلمين على غلبة دين الله الواحد الأحد القهار..

قال ابن إسحاق: " حدثني محمد بن جعفر بن الزبير، عن عروة بن الزبير قال: " بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثة إلى مؤتة في جمادي الأولى من سنة ثمان، واستعمل عليهم زيد بن حارثة وقال: " إن أصيب زيد فجعفر بن أبي طالب على الناس، فإن أصيب جعفر فعبد الله بن رواحة على الناس فتجهز الناس ثم تهيؤوا للخروج، وهم ثلاثة آلاف فلما حضر خروجهم ودع الناس أمراء رسول الله صلى الله عليه وسلم وسلموا عليهم فلما ودع عبد الله بن رواحة مع من ودع من أمراء رسول الله صلى الله عليه وسلم بكي،

فقالوا: ما يبكيك يا بن رواحة؟ قال: أما والله ما بي حب الدنيا ولا صبابة بكم، ولكني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ آية من كتاب الله عز وجل يذكر فيها النار:{وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا} [مريم: ٧١] فلست أدري كيف لي بالصدور بعد الورود، فقال المسلمون: صحبكم الله ودفع عنكم وردكم إلينا صالحين " (390 / صحيح السيرة / صحابة / 1622).

وخرج الجيش وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يشيعه حتى إذا ودعهم وانصرف عنهم.. مضي الجيش حتى نزل معانَ من أرض الشام.. فبلغ الناس أن هرقل قد نزل مآب من أرض البلقاء في مائة ألف مقاتل من الروم، وانضم إليهم مائة ألف مقاتل آخرين من لخم وجذام واليقين وبهراء عليهم رجل من بلى، يقال له: مالك بن زافلة، فلما بلغ ذلك المسلمين أقاموا على معان ليلتين يفكرون في أمرهم.. وقالوا نكتب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنخبره بعدد عدونا، فإما أن يمدنا بالرجال، وإما أن يأمرنا بأمره فنمضي له، قال: فشجع الناس عبد الله بن رواحة وقال: " يا قوم، والله إن التي تكرهون للتي خرجتم تطلبون، الشهادة، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة ولا نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به فانطلقوا فإنما إحدى الحسنيين: إما ظهور وإما شهادة فقال المسلمون: قد والله صدق ابن رواحة ومضوا للجهاد.

قال ابن إسحاق:

فمضى الناس حتى إذا كانوا بتخوم البلقاء لقيتهم جموع هرقل

والعرب بقرية من قرى البلقاء يقال لها: مشارف فانحاز المسلمون إلى قرية يقال لها: مؤتة، فالتقى الناس عندها فتعبأ لهم المسلمون فجعلوا على ميمنتهم رجلاً من بني عزرة، يقال له: قطبة بن قتادة، وعلى ميسرتهم رجلاً من الأنصار يقال له: عبادة بن مالك.. ثم التقى الناس واقتتلوا فقاتل زيد بن حارثة براية رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى شاط في رماح القوم، ثم أخذها جعفر فقاتل بها حتى إذا ألحمه القتال اقتحم فرس له شقراء فعقرها.. ثم قاتل القوم حتى قتل.. فكان جعفر أول رجل من المسلمين عقر في الإسلام.

وقال ابن إسحاق:

وحدثني يحيي بن عباد بن عبد الله بن الزبير، عن أبيه عباد، قال: حدثني أبي الذي أرضعني.. وكان أحد بني مرة بن عوف.. فكان في تلك الغزوة، غزوة مؤتة قال: والله لكأني أنظر إلى جعفر حين اقتحم عن فرس له شقراء ثم عقرها فقاتل حتى قتل وهو **يقول:**

يا حبذا الجنة واقترابها ::: طيبة وباردا شرابها
والروم روم قد دنا عذابها ::: كافرة بعيدة أنسابها
على إذ لاقيتها ضرابها

فلما قتل جعفر أخذ عبد الله بن رواحة الراية ثم تقدم بها وهو على فرسه.. فجعل يستنزل نفسه ويتردد بعض التردد، ثم قال:

أقسمت يا نفس لتنزلنه ::: لتنزلن أو لتكرهنه
إن أجلب الناس وشدوا الرنة ::: مالي أراك تكرهين الجنة
قد طالما قد كنت مطمئنة ::: هل أنت إلا نطفة في شنه

وقال أيضاً:

يـــا نفـــس إلا تقتلـــي تمـــوتي ::: هذا حمام المـــوت قـــد صـــليت
ومـــا تمنيـــت فقـــد أعطيـــت ::: إن تفعلـــي فعلـــهما هـــديت

وهو يقصد صاحبيه زيداً وجعفراً ثم نزل، فلما نزل أتاه ابن عم له بعرق من لحم، فقال: شد بها صلبك فإنك قد لقيت في أيامك هذه ما لقيت فأخذه من يده، ثم انتهس منه نهسة، ثم سمع الحطمة في ناحية الناس.

وقال: وأنت في الدنيا، ثم ألقاه من يده، وأخذ سيفه فتقدم فقاتل حتى قتل، ثم أخذ الراية ثابت بن أرقم أخو بني العجلان فقال: يا معشر المسلمين اصطلحوا على رجل منكم، قالوا: أنت، قال: ما أنا بفاعل، فاصطلح الناس على خالد بن الوليد، فلما أخذ الراية دافع القوم وحاش بهم، ثم انحاز وانحيز عنه حتى انصرف بالناس، (392 / صحيح السيرة / صحابة 1632).

انسحب خالد بن الوليد بجيش المسلمين.. فقد أيقن أن المعركة غير متكافئة على أية حال.. وأن هزيمة جيوش الروم المدججة بالسلاح ومعهم قبائل العرب المنضمين إليهم ويناهز عددهم ربع مليون مقاتل من جيش المسلمين الذي يقارب عددهم ثلاثة آلاف مقاتل.. أمر شبه مستحيل مهما كانت بطولات المسلمين في هذه الغزوة التي أذهلت الروم وأوقعت فيهم خسائر فادحة تعادل عشرات أضعاف ما وقع بالمسلمين... كما أيقن أن الرسالة التي كان يريدها الرسول صلى الله عليه وسلم أن تصل للروم قد وصلت.. وأن ما رأوه من بسالة المسلمين في الدفاع عن دينهم وأرضهم ومقدساتهم بأبدانهم وأرواحهم.. قد حقق رد مطامعهم في أرض العرب أو منع هذا الدين لذا فقد رأى خالد أن إنهاء المعركة والعودة بجيش

المسلمين.. هو أصوب الحلول وأنه لا داع من قتال نتائجه غير مؤكدة لصالح المسلمين.. بل هي أقرب للخسارة منها إلى الكسب.. مهما كان أداء المسلمين الرائع وبطولاتهم الخارقة.. ومع ذلك لم يسلم خالد بن الوليد والجيش المنسحب من النقد اللاذع من المسلمين في المدينة ومن الاتهام بالفرار والتخاذل.. إلى أن تدخل الرسول صلى الله عليه وسلم شخصياً في هذا الأمر.. ووافق على ما قام به خالد بن الوليد.

ولنعد إلى ما حدث في مؤتة من مشاهد.. وهي تبعد عن المدينة بمئات الكيلو مترات.. فهل كانت تلك المشاهد غائبة عن الرسول صلى الله عليه وسلم إلى أن يأتيه خبرها في المدينة.. وهو رسول آخر الزمان والنبي الخاتم.. الذي حمله خالقه العظيم أعظم الرسالات على وجه الأرض.. فأودع فيه من المواهب الروحية وأسرارها مجتمعة ما لم يودعه في بشر آخر مصطفياً إياه على العالمين بنشر هذه الرسالة التي كمل بها الدين وتمت بها النعمة على البشرية جمعاء والعالمين...

لقد نقل صلوات الله وسلامه عليه في ذات يوم مؤتة ما رآه من مشاهد واصفاً إياها بدقة تفوق وصف من حضرها وشارك فيها وحتى في صمته صلوات الله وسلامه عليه قليلاً وهو يصف أحد المشاهد يكون وراء هذا الصمت معنى..

قال ابن إسحاق:

" ولما أصيب القوم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :♂**أخذ الراية زيد بن حارثة فقاتل بها حتى قتل شهيداً، ثم أخذها جعفر فقاتل بها**

حتى قتل شهيداً.. ـــ قال: صمت رسول الله صلى الله عليه وسلم: وهذا الصمت هنا يعني بعض التردد الذي أصاب عبد الله بن رواحة بعد استلام الراية، ومقدمه على الاستشهاد حتى تغيرت وجوه الأنصار وظنوا أنه قد كان من عبد الله بن رواحه بعض ما يكرهون ثم قال صلى الله عليه وسلم :♂**ثم أخذها عبد الله بن رواحة بها فقاتل حتى قتل شهيداً..** ـــ (392 / صحيح السيرة / صحابة / 1633)

وفي ذات اليوم يتوجه إلى عائلة ابن عمه جعفر ليعزيها في فقيدهم باعتبار أن ما رآه صلوات الله وسلامه عليه كان يقيناً.

قال ابن إسحاق: فحدثني عبد الله بن أبي بكر، عن أم عيسى الخزاعية، عن أم جعفر بنت محمد بن جعفر بن أبي طالب، عن جدتها أسماء ابنة عميس، قالت: لما أصيب جعفر وأصحابه دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد دبغت أربعين منا وعجنت عجيني وغسلت بني ودهنتهم ونظفتهم قالت: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :♂**ائتني ببني جعفر**ـــ، قالت: فأتيته بهم، فتشمم وذرفت عيناه، فقلت يا رسول الله، بأبي أنت وأمي ما يبكيك... أبلغك عن جعفر وأصحابه شيء؟ قال:♂**نعم أصيبوا هذا اليوم**ـــ قالت: فقمت أصيح واجتمع إلى النساء، وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى فقال:♂**لا تغفلوا عن آل جعفر من أن تصنعوا لهم طعاماً فإنهم قد شغلوا بأمر صاحبهم**ـــ (392/صحيح السيرة/صحابة/1624).

ولابد أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يرى يوم مؤتة أرض المعركة.. يرى رجاله من المسلمين وقد أقدموا، ولم يبالوا لمواجهة جيش الروم الذي حزروه بأكثر من مائتي ألف مقاتل.. ولكن متى كانت معارك الإيمان معارك كثرة..؟ أقدموا ولم يبالوا..

وأمامهم قائدهم " وحبه " زيد حاملاً الراية مقتحماً رماح العدو ونباله وسيوفه، لا يبحث عن النصر، بقدر ما يبحث عن المضجع الذي ترسو عنده صفقته مع الله الذي اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة.. لم يكن " زيد " يرى حواليه رمال البلقاء، ولا جيوش الروم، بل كانت روابي الجنة ورفرفها الخضر تخفق أمام عينيه كالأعلام، تنبئه أن اليوم يوم زفافه.. وكان هو ومن معه من المسلمين وهم يضربون ويقاتلون، لا يطوحون برؤوس مقاتليهم فحسب، إنما يفتحون الأبواب، ويفضون الإغلاق التي تحول بينهم وبين الباب الكبير الواسع الذي، سيدلفون منه إلى دار السلام وجنات الخلد، وجوار الله جلا وعلا..

ولابد أن رآه صلوات الله وسلامه عليه وهو يعانق مصيره.. وروحه وهي في طريقها إلى الجنة تبتسم محبورة وهي تبصر جثمان صاحبها، لا يلفه الحرير الناعم أو يعظمه حراس الدنيا.. بل يضمخه دم طهور سال في سبيل الله.. ولابد أن دار في تلك اللحظات على خاطره صلوات الله وسلامه عليه شريط الذكريات.. أليس بشراً.. إنه " زيد " ذلك الطفل الذي سبي، ثم بيع، وأهدته زوجته الحبيبة خديجة فحرره وأعتقه ورباه واتخذه ابناً قبل البعثة.. وأحبه صلى الله عليه وسلم حباً عظيماً، وكان بهذا الحب خليقاً وجديراً.. فوفاؤه الذي لا نظير له، وعظمة روحه وعفة ضميره ولسانه ويده.. وكل ذلك وأكثر من ذلك،كان يزين خصال " زيد " الحب.. كما كان يلقبه أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم.. إنه ذلك الرجل القصير الأسمر، الأفطس الأنف.. بيد أنه أيضاً ذلك الإنسان الذي قلبه جميع " وروحه حر ".. ومن ثم وجد له في الإسلام، وفي قلب

رسول صلى الله عليه وسلم أعلى منزلة، وأرفع مكانة، فلا الإسلام ولا رسوله من يعبأ لحظة بجاه النسب، ولا بوجاهة المظهر.. ففي رحاب هذا الدين العظيم، يتألق " بلال " ويتألق " صهيب " ويتألق " عمار " و " خباب " و " أسامة " و " زيد ".. يتألقون جميعاً كأبرار، وقادة.. لقد صحح الإسلام قيم الحياة حين قال كتابه الكريم:{إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ} [الحجرات: ١٣]، وفتح الأبواب والرحاب للمواهب الخيرة وللكفايات الأمينة المعطية.

ولابد أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يرى ابتسامة روح زيد المطمئنة الهادئة وهي تتسع عندما أبصرت ثاني الأمراء " جعفرا " يندفع كالسهم صوب الراية ليتسلمها، قبل أن تغيب في التراب.. فما كادت الراية توشك على السقوط من يمين " زيد " حتى تلقاها " جعفر " باليمين.. ومضى يقاتل بها في إقدام خارق.. إقدام رجل يبحث عن الشهادة.. فتكاثر عليه وحوله مقاتلو الروم، ورأى فرسه تعوق حركته فاقتحم عنها فنزل.. وراح رجاله يصوبون سيوفهم ويسددونها إلى نحور أعدائهم، كنقمة القدر.. ولمح واحداً من الأعداء يقترب من فرسه ليعلو ظهرها، فعزت عليه أن يمتطي صهوتها هذا الرجس، فبسط نحوها سيفه وعقرها.. وانطلق وسط صفوف الروم المتكالبة عليه يدمدم كالإعصار.. وصوته يتعالى بهذا الرجز المتوهج:

يا حبذا الجنة واقترابها ::: طيبة وبارداً شرابها
والروم روم قد دنا عذابها ::: كافرة بعيدة أنسابها

على إذ لاقيتها ضرابها

وأدرك مقاتلو الروم مقدرة هذا الرجل يقاتل، وكأنه جيش لجب..

فأحاطوا به في إصرار مجنون على قتله.. وحاصروه حصاراً لا منفذ فيه لنجاة.. وضربوا بالسيوف يمينه، وقبل أن تسقط الراية منها على الأرض تلقاها بشماله.. وضربوها هي الأخرى فاحتضن الراية بعضديه.. ففي هذه اللحظة تركزت كل مسؤوليته في ألا يدع الراية تلامس التراب وهو حي.

يقول الصحابي الجليل عبد الله بن عمر:

" كنت مع جعفر في غزوة مؤتة فالتمسناه، فوجدناه وبه بضع وتسعون ما بين طعنة ورمية ".

ومع هذا فهل نال القتلة من روحه ومن مصيره منالاً.. أبداً، فما كانت سيوفهم ورماحهم سوى جسر عبر عليه الشهيد المجيد طائراً إلى جوار ربه الرحيم الأعلى حيث نزل في رحابه مكاناً علياً..

لقد صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ كان يلقبه بذي الجناحين.. وإذ قال صلى الله عليه وسلم: " لقد رأيته في الجنة.. له جناحان مضرجان بالدماء.. مصبوغ القوادم ".

ويدور في خلده صلوات الله وسلامه عليه أيضاً شريط الذكريات ماراً أمام عينيه.. إنه جعفر الذي يتميز بجلال شبابه ونضرة إهابه.. وأناته وحلمه.. وبره وتواضعه وتقاه.. وطهره وعفته.. وصدقه وأمانته وشجاعته التي لا تعرف الخوف.. وجوده الذي لا يخاف الفقر.. إنه جعفر أشبه الناس بالرسول خلقاً، وخلقاً.. إنه من كناه الرسول صلى الله عليه وسلم بـ " أبي المساكين " ولقبه بـ " ذي الجناحين " عظيم من عظماء الرعيل الأول الذي أسهموا في صوغ ضمير الحياة..

أقبل على الرسول صلى الله عليه وسلم مسلماً.. آخذاً مكانه العالي بين المؤمنين المبكرين.. وأسلمت معه في نفس اليوم زوجته.. أسماء بنت عمبس، وحملاً نصيبهما من الاضطهاد في شجاعة وغبطة..

فلما اختار الرسول لأصحابه الهجرة إلى الحبشة، خرج جعفر وزوجته حيث لبثا بها بضع سنين رزقا خلالها بأولادهما الثلاثة: محمد، عبد الله، وعوف.. وفي الحبشة كان " جعفر بن أبي طالب " المتحدث اللبق، الموفق باسم الإسلام ورسوله..

ذلك أن الله أنعم عليه فيما أنعم، بذكاء القلب، وإشراق العقل وفطنة النفس، وفصاحة اللسان.

ولئن كان يوم " مؤتة " الذي قاتل فيه قتالاً منقطع النظير حتى استشهد.. أروع أيامه، وأمجدها وأخلدها.. فإن يوم " المحاورة " التي أجراها أمام النجاشي بالحبشة، لا يقل روعة، ولا بهاء، ولا مجداً.. لقد كان يوماً فذاً، ومشهداً عجباً..

وذلك أن قريشاً لم يكن يهدئ من ثورتها، أو يذهب من غيظها هجرة المسلمين إلى الحبشة، بل خشيت أن يقوى هناك بأسهم ويتكاثر جمعهم.. هنالك قرر سادتها إرسال مبعوثين إلى النجاشي يحملان هدايا قريش النفيسة، ويحملان رجاءها في أن يخرج من بلاده هؤلاء الذين جاءوا إليها لائذين ومستجيرين.. وكان هذان المبعوثان عمرو بن العاص، وعبد الله بن أبي ربيعة.. قبل إسلامهما.

وكان " النجاشي " الذي كان يجلس يومئذٍ على عرش الحبشة رجلاً يحمل إيماناً مستنيراً في قرارة نفسه ويعتنق مسيحية صافية

واعية، بعيدة عن الانحراف والتعصب والانغلاق، وكانت سيرته العادلة تنشر عبيرها في أي مكان تبلغه..

من أجل هذا اختار الرسول صلى الله عليه وسلم مُلهمًا.. بلاده دار هجرة لأصحابه.. ومن أجل هذا خافت قريش ألا تبلغ لديه ما تريد.. فحملت مبعوثيها هدايا ضخمة للأساقفة، وكبار رجال الكنيسة هناك، وأوصى زعماء قريش مبعوثيهم ألا يقابلا النجاشي حتى يعطيا الهدايا للبطارقة أولاً، وحتى يقنعاهم بوجهة نظرهما ليكونوا لهما عوناً عند النجاشي.. ونفذ المبعوثان بحنكة الدهاء ما رسم لهما ومضيا يوغران صدور القساوسة والأساقفة ضد المسلمين المهاجرين.. ويستنجدان بهم، لحمل النجاشي على إخراجهم من بلاده..

وحددا يوم يلقيان فيه النجاشي، ويواجهان بين يديه خصوم قريش الذين تلاحقهم بكيدها وأذاها.. وفي وقار مهيب، وتواضع جليل، جلس " النجاشي " على كرسيه العالي، يحفه الأساقفة ورجال الحاشية، وجلس أمامه في البهو الفسيح المسلمون المهاجرون، تغشاهم سكينة الله، وتظلهم رحمته..

ووقف مبعوثا قريش يكرران الاتهام الذي سبق أن رداه أمام النجاشي حين أذن لهما بمقابلة خاصة قبل هذا الاجتماع الحاشد الكبير..

فقال عمرو بن العاص أحد دهاه العرب آنذاك " قبل إسلامه ":

(أيها الملك.. إنه قد ضوى إلى بلدك غلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينك، بل جاؤوا بدين ابتدعوه، لا نعرفه نحن

ولا أنت، وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم، وعشائرهم لتردهم إليهم).

وولى النجاشي وجهه شطر المسلمين، ملقياً عليهم سؤاله:

" وما هذا الدين الذي فارقتم فيه قومكم، واستغنيتم عن ديننا؟ "

ونهض " جعفر " قائماً ليؤدي المهمة التي كان المسلمون المهاجرون قد اختاروه لها إبان تشاورهم قبل مجيئهم إلى هذا الاجتماع، نهض في تؤدة وجلال، وألقى نظرات المودة والمحبة على الملك الذي أحسن جوارهم.. **قائلاً:**

(أيها الملك.. كنا قوماً أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف.. حتى بعث الله إلينا رسولاً منا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه.. فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من الحجارة والأوثان.. وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء.. ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات فصدقناه وآمنا به، واتبعناه على ما جاءه من ربه، فعبدنا الله وحده ولم نشرك به شيئاً، وحرمنا ما حرم علينا، وأحللنا ما أحل لنا، فغدا علينا قومنا، فعذبونا وفتنونا عن ديننا، ليردونا إلى عبادة الأوثان، وإلى ما كنا عليه من الخبائث.. فلما قهرونا، وظلمونا، وضيقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا، خرجنا إلى بلادك، ورغبنا في جوارك، ورجونا ألا نظلم عندك..).

ألقي " جعفر " رضوان الله عليه بهذه الكلمات المضيئة ضوء

الفجر.. فملأت نفس النجاشي إحساساً بالسكينة والاطمئنان والروعة.. والتفت إلى " جعفر " وسأله: " هل معك مما أنزل على رسولكم شيء؟، فقال ☺ وأرضاه: نعم.. فقال النجاشي: فاقرأ على ومضى جعفر يتلو آيات من سورة مريم، في أداء عذب وخشوع آسر.. **فبكي النجاشي.. وبكي معه أساقفته جميعاً.. ولما كفكف دموعه.. التفت إلى مبعوثي قريش قائلا:**

(والله إن هذا والذي جاء به المسيح،، ليخرج من مشكاة واحدة.. انطلقا فلا والله، لا أسلمهم إليكما).

انفض الجمع وقد نصر الله عز وجل عباده وآزرهم.. لكن عمرو ابن العاص.. داهية العرب لم يرد آنذاك أن يمتثل للحق والحقيقة.. أو أن يتجرع الهزيمة بشرف.. فلم يكد يعود مع صاحبه عبد الله بن أبي ربيعة إلى نزلهما حتى ذهب يفكر ويدبر ويمكر حتى قال لصاحبه:

(والله لأرجعن للنجاشي غداً ولآتينه عنهم بما يستأصل خضواهم، فوالله لأخبرنه أنهم يزعمون أن عيسى ابن مريم عبداً كبقية العباد).

هذه إذن هي المكيدة الجديدة.. والمكر في أوج شره.. من داهية العرب الذي لم يكن الله جل وعلا قد هداه للإسلام بعد.. كي يلجئهم إلى الزاوية الحادة، ويضعهم بين شقي الرحى، فإن هم قالوا: إن المسيح عبد من عباد الله، حركوا ضدهم إضغان الملك والأساقفة.. وإن هم تفوا عنه البشرية خرجوا من دينهم.

وفي الغداة غدا عمرو وصاحبه السير إلى مقابلة الملك وقال له عمرو:

" يا أيها الملك: أنهم ليقولون في عيسى قولاً عظيماً "

واضطرب الأساقفة.. واهتاجتهم هذه العبارة الماكرة القصيرة.. ونادوا بدعوة المسلمين مرة أخرى لسؤالهم عن موقف دينهم من المسيح.. وعلم المسلمون بالمؤامرة الجديدة، فجلسوا يتشاورون.. واتفقوا على أن يقولوا الحق الذي سمعوه من نبيهم عليه الصلاة والسلام، لا يحيدون عنه قيد شعرة، وليكن ما يكون.

وانعقد الاجتماع.. وبدأ النجاشي الحديث مرة أخرى سائلاً جعفرًا رضوان الله عليه: " ماذا تقولون عن المسيح؟ ".

فنهض جعفر كالمنار المضيء وقال:

نقول فيه ما جاءنا به نبينا صلى الله عليه وسلم: وهو عبد الله ورسوله... وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه كلمات موجزة جامعة بليغة حاسمة.. يصعب إنكارها أو الاعتراض عليها من عقل مستنير وقلب مفعم بالإيمان فهتف النجاشي مصدقاً ومعلناً أن هذا هو ما قاله المسيح عن نفسه.. وإن كان بعض من حضروا من الأساقفة قد ضج بما يشبه النكير..

ومضى النجاشي المستنير المؤمن يتابع حديثه للمسلمين قائلاً:

" اذهبوا، فأنتم آمنون بأرضي، ومن سبكم أو أذاكم فعليه غرم ما يفعل ".

ثم التفت صوب حاشيته. وقال وسبابته تشير إلى مبعوثي قريش: " ردوا عليهم هداياهم، فلا حاجة لي بها، فوالله ما أخذ الله من الرشوة حين رد على ملكي، فأخذ الرشوة فيه ".

وخرج داهية قريش وصاحبه مخذولين، حين وليا وجههما من فورهما شطر مكة عائدين إليها.

وفي رأينا أن ما حدث في تلك الحوارات وما تلي من آيات قرآنية كريمة.. وتعريف بهذا الدين العظيم القيم.. كان له أكبر الأثر على عمرو وصاحبه.. في إعمال العقل والضمير ومراجعة النفس.. والتعجيل بإشهار إسلامهما فيما بعد.

وخرج المسلمون بزعامة " جعفر " من عند النجاشي فور هذين الاجتماعيين التاريخيين ليستأنفوا حياتهم في الحبشة لابثين فيها كما قالوا " بخير دار مع خير جار " حتى أذن الله لهم بالعودة إلى رسول الله وإخوانهم وديارهم.. وكان ذلك بعد فتح خيبر وقبل غزوة مؤتة.. إذ كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحتفل مع المسلمين بفتح " خيبر " حين طلع عليهم جعفر قادماً من الحبشة ومعه من كانوا لا يزالون بالحبشة من المهاجرين.. فعانقه الرسول صلوات الله وسلامه عليه وهو يقول: لا أدري بأيهما أنا أسر: بفتح خيبر.. أم بقدوم جعفر.

وركب جعفر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحبه إلى مكة، حيث اعتمروا عمرة القضاء، وعادوا إلى المدينة وقد امتلأت نفس " جعفر " روعة بما سمع من أنباء أخوة الإيمان الذين خاضوا مع النبي صلى الله عليه وسلم غزوة بدر وأحد.. وغيرها من المشاهد والمغازي.. وفاضت عيناه بالدمع على الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه، وقضوا نحبهم شهداء وأبراراً وطار فؤاده شوقاً إلى الجنة وأخذ يتحين فرصة الشهادة ويترقب لحظتها المجيد.. إلى أن أتت على عجلة مشتاقة إليه هي أيضاً يوم مؤتة فلله درك يا طائر الجنة الغريد... نعم السفير للإسلام كنت... ونعم الشهيد في سبيل الله كنت.

ولنعد بعد استعراض هذا الشريط المضيء بأحداثه الرائعة الخالدة... إلى ساحة الشرف في أرض مؤتة ومعاركها البطولية الخالدة... على مر التاريخ فحين تكوم جثمان جعفر الطاهر... كانت سارية الراية مغروسة بين عضدي جثمانه تنادي خفقاتها " عبد الله ابن رواحة " فشق الصفوف، كالسهم نحوها، وأخذها في قوة، ومضى بها إلى مصير عظيم.. لقد بلغ القتال أوج ضراوته... وكادت القلة المسلمة تتوه في زحام الجيش العرمرم الذي حشده هرقل؟ وحين كان ابن رواحة يقاتل كجندي كان يصول ويجول بفدائية منقطعة النظير في غير تردد ولا مبالاة.. أما الآن فقد أصبح أمير الجيش المسؤول عنه وعن حياته... فبدا ☺ وكأنما مرت به لمسة تردد وتهيب، لكنه ما لبث أن استجاش كل قوى المخاطرة في نفسه وصاح:

أقسمت يا نفس لتنزلنه ::: مالي أراك تكرهين الجنة؟؟
يا نفسي إلا تقتلي تموتي ::: هذا حمام الموت قد صليت
وما تمنيت فقد أعطيت ::: إن تفعلي فعلها هديت

وانطلق يعصف بالروم عصفاً... ولولا كتاب سبق أن يكون موعده مع الجنة لظل يضرب بسيفه حتى يغنى الجموع المقاتلة... ولكن ساعة الرحيل دقت معلنة بدء مسيرته إلى الله.. فصعد شهيداً.. هوى جسده وصعدت إلى الرفيق الأعلى روحه المستبسلة الطاهرة وتحقق أعلى أمانيه:

حتى يقال إذا مروا على جدثي ::: يا أرشد الله من غاز وقد رشدا

يرى رسول الله صلوات الله وسلامه عليه... ذلك المشهد مستمعاً إلى أشعار عبد الله التي طالما أحب الاستماع إليها.. ويمر شريط

الذكريات المضيء أمام عينيه الشريفتين. فعندما كان عليه الصلاة والسلام يجلس مستخفياً من كفار قريش مع الوفد القادم من المدينة هناك عند مشارف مكة، يبايع اثنا عشر نقيباً من الأنصار الرسول بيعة العقبة الأولى، كان عبد الله بن رواحة واحد من هؤلاء النقباء حملة الإسلام إلى المدينة، والذين مهدت بيعتهم هذه للهجرة التي كانت بدورها منطلقاً رائعاً لدين الله (الإسلام).. وعندما كان الرسول صلى الله عليه وسلم يبايعه في العام التالي ثلاثة وسبعون من الأنصار أهل المدينة بيعة العقبة الثانية، كان " ابن رواحة " بإيمانه بهذا الدين العظيم والقيم واحداً من النقباء المبايعين.

وبعد هجرة الرسول وأصحابه إلى المدينة واستقرارهم بها، كان عبد الله بن رواحة من أكثر الأنصار حماسة وعملاً لنصرة الدين ودعم بنائه، وكان من أكثرهم يقظة لمكايد عبد الله بن أبي ابن سلول.. الذين كان أهل المدينة يتهيئون لتتويجه ملكاً عليها قبل أن يهاجر الإسلام إليها، والذي لم يبارح حلقومه مرارة الفرصة الضائعة، فمضى يستعمل دهاءه في الكيد للإسلام.. في حين مضى عبد الله بن رواحة يتعقب هذا الدهاء ببصيرة منيرة، أفسدت على " ابن أبي " أكثر مناوراته، وشلت حركة دهائه.. وبالإضافة إلى أنه ☺ وأرضاه كان كاتباً في بيئة لا عهد بها بالكتابة إلا يسيراً.. فقد كان شاعراً ينطلق الشعر من بين ثناياه ويستزيده منه..

ولا ريب في أن الرسول صلى الله عليه وسلم مر على خاطره شريط عمرة القضاء بالأمس القريب وابن رواحة ينشد من رجزه أثناء طوافه بالكعبة بصحبته صلى الله عليه وسلم والمسلمون يرددون معه:

يا رب لولا أنت ما اهتدينا ::: ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزلن سكينة علينا ::: وثبت الأقدام إن لاقينا
إن الذين قد بغوا علينا ::: إذا أرادوا فتنة أبينا

وحينما اضطر الإسلام لخوض القتال دفاعاً عن نفسه يحمل " ابن رواحة " سيفه في مشاهد " بدر " و " أحد " و " الحديبية " و " خيبر " جاعلاً شعاره دوما هذه الكلمات من شعره وقصيده: (يا نفس إلا تقتلي تموتي).. صائحاً في المشركين والكفار في كل معركة وغزاة.

لا ريب.. إنه صلوات الله عليه وسلامه.. كان يرى ويسمع ذلك كله.. بما أودعه العلي القدير فيه من مواهب روحية.. ورأى مسارعة " ثابت بن أقرم " ☺ إلى اللواء بعد سقوط آخر القواد شهيداً فحمله بيمينه.. ورفعه عالياً وسط الجيش المسلم.. طمأنة للنفوس.. ودرءاً لأي خلل في صفوفه، ومتوجهاً به إلى خالد بن الوليد قائلاً له: خذ اللواء يا أبا سليمان.. ولكن خالدًا لم يجد من حقه، وهو حديث العهد بالإسلام أن يقود قوماً فيهم صحابة الرسول صلى الله عليه وسلم الذي سبقوه بالإسلام.. فيعتذر خالد في أدب وتواضع وعرفان من أنعم الله جل وعلا عليه للإسلام قائلا: لا لا آخذ اللواء أنت أحق به.. لك سن وقد شهدت بدراً.. فأجابه ثابت: خذه، فأنت أدرى بالقتال مني، ووالله ما أخذته إلا لك.. ثم نادى في المسلمين: أترضون إمرة خالد؟ قالوا: نعم.

ولي خالد إمرة الجيش، بعد أن كان مصير المعركة قد بدأ يتحدد أمام كثرة جيوش الروم الساحقة، ولم يكن بوسع أية كفاية حربية أن تغير من المصير شيئاً.. وكان العمل الوحيد الذي ينتظر عبقرياً لكي

ينجزه، وهو وقف الخسائر في جيش الإسلام والخروج به سالماً أي الانسحاب الوقائي الذي يؤدي إلى نجاة القوة المقاتلة على أرض المعركة.. بيد أن انسحاباً كهذا.. يكاد أيضاً أن يكون مستحيلاً.. ولكن إذا كان صحيحاً أنه لا مستحيل على القلب الشجاع فمن أشجع من خالداً قلباً ومن أروع عبقرية وأنفذ بصيرة؟

هنالك تقدم سيف الله يرفق أرض المعركة الواسعة بعينين كعيني الصقر ويدير الخطط في بديهته بسرعة الضوء.. ويقسم جيشه والقتال دائر إلى مجموعات، ثم يكل إلى كل مجموعة بمهامها.. وراح يستعمل فنه القتالى المعجز حتى فتح في صفوف جيش الروم ثغرة فسيحة واسعة خرج منها جيش المسلمين معافي بعد أن نجا بإذن الله ومشيئته على يد قائد عبقري. يحدث هذا كله على مرأى ومسمع من صلوات الله وسلامه عليه وهو في المدينة وقلوب المسلمين جميعاً في المدينة.. متلهفة لسماع أخبار تطمئنهم على جيش لمسلمين خاصة بعدما سمعوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم استشهاد الأمراء الثلاثة وأنهم يقاتلون جيشاً كثرته العددية أكبر من جيشهم بما يزيد عن السبعين ضعفاً.. فيلتفت رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى صحبه من المهاجرين والأنصار.. قائلاً: " أخذ الراية: زيد ابن حارثة فقاتل حتى قتل شهيداً.. ثم أخذها جعفر، فقاتل بها، حتى قتل شهيداً ثم أخذها عبد الله بن رواحة، فقاتل بها حتى قتل شهيداً.. ثم أخذ الراية سيف من سيوف الله، ففتح الله على يديه ".

فاطمأنت قلوب المسلمين.. بنجاة جيشهم بعد ما حققه من بطولات في المعركة منقطعة النظير فلم يحدث في التاريخ قديمه أو حديثه أن يواجه جيش قوامه ثلاثة آلاف مقاتل يقاتل جيشاً يفوق عدده

عنه أكثر من سبعين ضعفاً ومجهزًا على أفضل ما يكون التجهيز في زمانه من عدة وعتاد وتدريب وعلى رأسه هرقل احد أبرز قواد التاريخ.. وينجو منه بعد أن أحدث فيه خسائر هائلة قدرتها بعض الروايات بأكثر من أربعين ألف قتيل.. وناهيك عن الهزة العنيفة التي أحدثتها نتائج تلك المعركة في معنويات جنود أو قادة جيوش الإمبراطورية الرومانية والتي كان لها أيضاً أكبر الأثر بعد ذلك في انتصار الفتح الإسلامي على الجيوش الجرارة لتلك الإمبراطورية التي طالما ما كانت تفاخر بانفراد قوتها.. ولكن هيهات بين من يقاتل في سبيل الله.. ومن يقاتل مع الطاغوت..

ولنعد إلى المدينة بعد أن علم المسلمون أخبار جيشهم من رسولهم الكريم.. واطمأنوا على أخر أخباره القتالية.. واطمأن قلب الرسول.. إلى أن من معه وحوله من المؤمنين بدعوته ورسالته.. جديرون وقادرون بإذن الله ومشيئته وتوفيقه.. على نشر دعوته ورسالته إلى مشارق الأرض ومغاربها.. وأن هذا الدين العظيم القيم أصبح يمتلك النفوس والعقول والقلوب.. وأنه سيترسخ في أرجاء الأرض بهذه النفوس والعقول والقلوب.. التي تحمل أرواحها على أكفها راجية الشهادة في سبيل الله... حتى قبل النصر لأنها على يقين أن نصر الله لدينه.. لا ريب.. آت.. آت.. لذا فإن الفوز الحقيقي هنا هو السبق بالشهادة..

يطمئن قلب محمد الرسول النبي المكلف ببلاغ رسالة خالقه العظيم والدعوة إليها مبشراً ونذيراً وهادياً إلى الحق وسراجاً منيراً.. ولكن خالقه العظيم اللطيف الخبير.. يعلم أن نفس محمد الإنسان يكتنفها الحزن والأسى ولوعة الفراق.. كلما فقد صاحباً أو تابعاً أو

عزيزاً.. أليس خالقه العظيم ما يسري عنه ويذهب عنه وعن صحبه وتابعيه أي حزن على فقدان شهيد في سبيل الله.. ضارباً له المثل بمن أمرهم لغزوة مؤتة.. إذ بعد أن أسبل جفنيه قليلاً ثم رفعهما لينطلق من عينيه بريق ساطع يبلله أسى وحنان وطوفت نظراته الآسية وجوه أصحابه وأخبرهم باستشهاد الأمراء الثلاثة زيد وجعفر وعبد الله بن رواحة..

صمت صلوات الله وسلامه عليه قليلاً وتألقت عيناه بومض متهلل مطمئن مشتاق قائلاً:

" لقد رفعوا إلى الجنة فيما يرى النائم على سرر من الذهب، فرأيت في سرير عبد الله بن رواحة إزوراراً عن سريري صاحبيه فقلت: عم هذا؟ فقيل لي: مضياً وشاب عبد الله بعض التردد، ثم مضى " ابن إسحاق /392 / صحيح السيرة / صحابة /1633.

فهل هناك تسرية عن النفس وذهاب للحزن أروع من هذه التسرية.. وهل هناك وصف لما يدور في المعركة وهو صلى الله عليه وسلم في المدينة على بعد مئات الأميال أدق من هذا الوصف..

وفي رأينا أن هذه الظاهرة الروحية المعجزة غير مسبوقة في تاريخ الرسالات السماوية على الأرض.. فلم نسمع أو نقرأ في تاريخ السير الذاتية للرسل والأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم وعلى رسولنا أجمعين.. أن رسولاً أو نبياً ينقل أنباء جيش على بعد مئات الأميال من تابعيه والمؤمنين برسالته ويقاتل في سبيل الله من أجل نشر دعوته بهذه الدقة وتشهد على ذلك مدينة كاملة من أصحابه وتابعيه الذين يتلقون الأنباء منه مصدقين إياه دون أدنى شك أو ريبة

للدرجة التي يعزي بعضهم بعضاً عند تلقي خبر استشهاد شهيد..

حتى أن شاعر الإسلام حسان بن ثابت وقف يرثي جعفر ورفاقه استشهادهم وتلقيه النبأ من الرسول صلى الله عليه وسلم في ذات يوم مؤتة بقصيدته الشهيرة التي مطلعها:

غداة مضوا بالمؤمنين يقودهم ::: إلى الموت ميمون النقيبة أزهر
أغر كضوء البدر من آل هاشم ::: أبى إذا سيم الظلام مجسر
فطاعن حتى مال غير موسد ::: لمعترك فيه القنا يتكسر

نعم بمثل هؤلاء الصحب والرجال لابد وأن يطمئن قلب محمد الرسول النبي صلى الله عليه وسلم **بنشر الرسالة التي كلف بالدعوة إليه خالقه العظيم، وإن كانت عين محمد الإنسان تذرف.**

* * *